المحاضرة الثالثة: نشأة نظرية المعرفة

البحث في نظرية المعرفة قديم قدم البحث في الطبيعة، والإنسان، وما وراءهما، فقد كانت مسائلها مجالا للبحث والنظر في ذلك الوقت الذي أخذ فيه فريق من الفلاسفة اليونان يعودون عن فلسفات أسلافهم في الوجود والعالم إلى الإنسان أو ما يسمونه الانتقال من الموضوع إلى الذات، ومن الأشياء إلى المعرفة، وعلى رأس هؤلاء سقراط، الذي كان جوهر فلسفته "إعرف نفسك بنفسك"، والذي حول النظر إلى المعرفة ، وحتى المعرفة جعلها فضيلة ، والرذيلة جهلا[1].

وقد طرأت على مبحث نظرية المعرفة تعديلات أثناء تطور الفلسفة وعبر تاريخها الطويل، فهو ليس وليد عصر معين أو فيلسوف معين، بل هو مفهوم يتطور دائماً.

- وقد أضحت المعرفة منذ بدأت تحتل مكانة مركزية في الفلسفة لا يبالغ إذا قلنا أنها فاقت أهميتها كل فروع الفلسفة الأخرى.

نشأة نظرية المعرفة عند اليونان :

- ✓ ساهم السوفسطائيون مساهمة هامة في توسيع نطاق مناقشة مشكلة المعرفة ، وعلى الأخص :**جورجيا**، فقد استطاع بكتابه في الوجود أن يتيح لنا النظر نظرة عميقة إلى طريقة وضع مشكلة المعرفة في عصر السوفسطائيين.
- ✓ نادى **سقراط** بالعقل مصدرا للمعرفة، من خلال معاييره الثابتة، والتي تشترك فيها العقول جميعا، ورد شك السوفسطائية إلى اعتمادهم على الحس، الذي يختلف باختلاف الأفراد، بل يختلف لدى الفرد نفسه، مما يجعل أحكامه مختلفة، وهذا خلاف العلم الذي هو: معرفة الكليات الثابتة في الأشياء، وهذه مصدرها العقل[2]. بَيدَ أنَّ حَلَّ سقراط لمسألة المعرفة بقي ناقصا.

---

1 – محمد ثابت الفندي ، طريق الفيلسوف، ص140.

2 – محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ص100.

✓ وجاء **أفلاطون** فواصل منهج أستاذه سقراط، معتبرا التعقل معيار الحقيقية الصادق الأمين، خلافا للمعرفة الحسية الخادعة[3]، وكان قد قدم فكرته الأصلية البسيطة التي تمثلت في أن هناك إلى جانب كلِّ شيء متغير شيء آخر خالد لا يأتي عليه تبدل وينبغي أن تقوم عليه وحدة المعرفة والسلوك، ومن ثم فلا علم إلا بالكلي الذي يظل دائما في ذاته باقيا على ذاتيته، وبذلك ارتبطت نظرية أفلاطون في المعرفة بنظريته في الوجود وفي الأخلاق.

✓ وخلفه تلميذه **أرسطو** ، الذي أدى شغفه بالمعرفة أن انشغل انشغالا شديدا بالبحث في وسائل المعرفة الإنسانية، ومدى ما يمكن أن نصل إليه من خلال هذه الوسائل ومن ثم بحث فيما يمكن أن يؤديه العقل ووجد نفسه أنه قادر على أن يحلل ما تعطيه الحواس ويبني منه ما يسمى بالمعرفة الإنسانية فالإنسان هو العقل ويستدل ويقيس أساسا وليس هو فقط ما يستقرئ .

فأرسطو جعل للتجربة الحسية مقاما مهما في المعرفة التي يقوم بها العقل ، وبهذا جدد في قضية المعرفة، فيما أثبت من عمل رئيس للحواس، مما لم يقل به أستاذه أفلاطون ، الذي قصر المعرفة على التعقل المحض[4].

نشأة نظرية المعرفة عند الفلاسفة الغربيين :

معظم الباحثين من الغربيين في نشأة نظرية المعرفة: يجعلون عام 1690 بداية قيام هذه النظرية،

- وهو العام الذي طبع فيه الفيلسوف الإنجليزي **جون لوك** " مقاله في الفهم الإنساني"، ليكون أول محاولة لفهم المعرفة البشرية وتحليل الفكر الإنساني وعملياته، فهو مؤسس النظرية ، وكتابه المذكور مفتتح عهدها[5].
- ولكن بالرغم من أن نظرية المعرفة تأسست على يد "لوك" الذي قامت على تأسيسه البحوث المنظمة فيها، فإن مصطلح نظرية المعرفة لم يظهر إلا بعد "لوك" بمدة طويلة[6].

---

3 – ول ديورانت، قصة الفلسفة، ص42.

4 – عزمي إسلام، جون لوك، ص17. وينظر: عبد الرحمن بن زيد الزنيدي، مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي.، ص53.

5 – محمد حمدي زقزوق، تمهيد للفلسفة، ص115.

6 – محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ص161.

- ويعتبر "إيمانويل كانت" أعظم من كتب في نظرية المعرفة، ووضعها على أساس علمي متين، وهو الذي لفت الأنظار إلى ضرورة قيام نظرية المعرفة بوصفها نقطة البدء في كل فلسفة[7].
- وقد تجاوز الاهتمام بنظرية المعرفة الفلسفة إلى ميادين الفكر الأخرى، فأصبحت العلوم الجزئية يتطلب كل منها نظرية في المعرفة، ينبثق منها البحث في ذلك التخصص المعين، حتى علم اللاهوت المسيحي رأى أصحابه حاجتهم إلى نظرية في المعرفة.

يقول كولبة: "إن أتباع مذهب رتشل[8] –على الخصوص– قد ذهبوا إلى أن التفسير العلمي لتعليمات الدين المسيحي يتطلب نظرية في المعرفة مثل نظرية كانت"[9].

نظرية المعرفة في التراث الإسلامي:

يرى الفلاسفة المعاصرون في الغرب أن نظرية المعرفة لم تقم قبل عام 1690م ، الذي طبع فيه كتاب جون لوك "مقالة في الذهن البشري"، وأما ما قبل ذلك فإن تناولهم لمباحث هذه النظرية فيه، يتمثل في الإشارة إلى المسائل التي جاء بها فلاسفة اليونان.

وعلى هذا السنن –تقريبا– سار أكثر المترجمين والكاتبين العرب، دون ذكر شيء يتعلق بهذه النظرية في الإسلام وعند المسلمين.

أما المؤرخون لفكر الفلاسفة المسلمين : فإنهم يذكرون آراء هؤلاء في النقل والعقل والذوق،نحوه –عرضا تاريخيا– ، وحينما يكتبون عن الفلسفة في الإسلام ، فإنهم لا يتجاوزون بحث أصول العقيدة الإسلامية ، وكبار المسائل المثارة في ذلك العصر ، كأسماء الله وصفاته ، والقضاء ، والقدر، والنبوة، والولاية، والإمامة، ونظرات الفرق المنتسبة إلى الإسلام إليها.

---

7 – عبد الرحمن بن زيد الزنيدي، مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي.، ص54-55.

8 – البر خت رتشل: لاهوتي ألماني توفي عام 1889م، ومجمل مذهبه الديني أن الإيمان المنبثق من الأعمال هو طريق الوصول إلى الله وتحصيل الحاجات الروحية والمثل العليا، لا المعرفة الفلسفية المجردة ، أنظر: الموسوعة العربية الميسرة، ص907.

9 – المصدر نفسه، ص55-56.

لكن فريقا آخر من الباحثين ، اتجه نحو البحث في مسائل هذه النظرية من خلال النصوص الشرعية، واجتهاد العلماء السابقين في هذه المسائل[10].

والحقيقة أن لعلماء المسلمين السابقين في مجال المعرفة ومسائلها، إسهاما عظيما.

فهم وإن لم يؤلفوا فيها تآليف خاصة ، ملتزمة بالنسق الفلسفي المعهود في الدراسات المعاصرة، إلا أنهم قد تناولوا مسائلها خلال مؤلفاتهم في علوم أصول الدين والفقه والمنطق[11].

فقد ساهم إذن علماء المسلمين السابقين في مجال المعرفة ومسائلها من خلال مؤلفاتهم في علوم أصول الدين والفقه والمنطق.

ثم أفرد العلماء المسلمون مؤلفات خاصة في هذا الجانب وعلى سبيل المثال نذكر بعضا منها:-

1. **القاضي عبد الجبار الهمذاني،** أفرد في كتابه المغني مجلداً كاملا بعنوان «النظر والمعارف»، بحث فيه مسائل المعرفة في سبعين بابا.
2. **والإمام الباقلاني** قدم لكتابة التمهيد بباب في العلم ، وطرقه، وبهذا سن سنة سلكها علماء الكلام بعده ، وأخذوا يقدمون لكتبهم بمقدمة هي أشبه ماتكون بنظرية في المعرفة، أو دراسة في الفلسفة العامة ويكفي أن نشير إلى مثلين اثنين:.
3. **أولها: فخر الدين الرازي،** الذي وقف الركن الأول من المحصول على العلم والنظر.
4. **وثانيهما الإيجي** : الذي عقد أيضا الموقف الأول من كتابه "المواقف" للعلم والنظر[12].
5. **الإمام ابن تيمية:** صنف كتاب «درء تعارض العقل والنقل» وبحث فيه العلاقة بين مصدري المعرفة ، العقل والوحي، وميادين كل منهما.

---

10 – ينظر مثلا: عمر الشيباني، مقدمة في الفلسفة الإسلامي. و: محمد باقر الصدر، فلسفتنا.

11 – ينظر مثلا: عمار طالبي، آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، فصل نظرية المعرفة عند ابن العربي، 79/1.

وعلي المغربي، إمام أهل السنة والجماعة أبو منصور الماتريدي وآراؤه الكلامي، فصل نظرية المعرفة، ص350

12 – من مقدمة إبراهيم مدكور لكتاب النظر والمعارف لعبد الجبار الهمذاني.

وهناك عدد من علماء المسلمين من الأصوليين والفقهاء والمتكلمين والفلاسفة وغيرهم ممن تناول موضوعا أو أكثر من موضوعات المعرفة في كتبهم.ونجدها أيضا في مقالات الفرق:

- ✓ ككتاب مقالات الإسلاميين **للأشعري،**
- ✓ و«المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال» و«المستصفى من علم الأصول» **للغزالي**
- ✓ وكذلك في كتاب «التعريفات» **للإمام الجرجاني.**
- ✓ **ونجد الفيلسوف العربي الكندي يعقوب بن إسحاق** قد حاول ضبط العلم والمعرفة في مؤلفاته، ومنها «رسالة في حدود الأشياء ورسومها».
- ✓ **وكذا المعلم أبو نصر الفارابي** الذي تحدث عن العلم وحده وتقسيماته في كتاب «البرهان» وفي كتب أخرى .
- ✓ **والفيلسوف العظيم ابن سينا** الذي تناول الإدراك والعلم واليقين في كتابه «الإشارات والتنبيهات» وفي غير ذلك من كتبه العديدة
- ✓ **ونجد ذلك عند فيلسوف قرطبة والغرب الإسلامي بل ومشرقه أيضا ابن رشد** في «تهافت التهافت»، الذي رد به على الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة».

مقارنة :

الملاحظ من خلال استعراض تاريخ نشأة نظرية المعرفة أنها عند الفلاسفة الأقدمين، كانت مبثوثة متفرقة، في ثنايا أبحاث الوجود والقيم، بل لم يكن يجمعها كتاب واحد أو دراسة منهجية مستقلة، فقد كانت متضمنة مثلا عند **أفلاطون** في أبحاثه في الجدل، وعند **أرسطو** في بحث ما وراء الطبيعة، دون أن يميزوا بين موضوع المعرفة وموضوع «الميتافيزيقا»، إلا أنهم بحثوا في أهم جوانب المعرفة.

-ولعل علماءنا المسلمين قد سبقوا غيرهم في إفراد بحث المعرفة بصورة مستقلة في كتبهم، لأهمية هذا الموضوع بالنسبة لهم، وعلاقته بالوجود، بينما لم يبدأ إفرادها عن الفلاسفة الغربيين إلا في القرن السابع عشر، مع **جون لوك**.

أما جوانب الاهتمام بقضية المعرفة، فإنها –لا ريب– تختلف في ذلك العصر عند المسلمين عنها في الفلسفة الغربية المعاصرة، فإذا كان الباحث اليوم في هذه الفلسفة يجد نفسه بين مذهبين كبيرين في نظري المعرفة هما: المذهب العقلي والمذهب التجريبي، فإن مجال البحث القائم آنذاك هو: النقل والعقل والعلاقة بينهما[13].

13 – عبد الرحمن بن زيد الزنيدي، مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي.، ص58.